الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
People's Democratic Republic Of Algeria
Ministry Of Higher Education and Scientific Research

جامعة الأمير عبد القادر
للعلوم الإسلامية - قسنطينة -
كلية أصول الدين
مخبر الدراسات القرآنية والسنة النبوية

Emir Abd-El-Kader University
ForIslamic Sciences-
Algeria-Constantine

عنوان المداخلة:

تنزيل الآيات على الواقع عند أعلام التفسير في الجزائر خلال القرن الرابع عشر الهجري

د. مريم بوعافية

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى إبراز مدى عناية التفاسير الجزائرية في القرن الرابع عشر بمسألة تنزيل الآيات على الواقع، فقد لمعت جهود بعض أعلام الجزائر المعاصرين في علم التفسير، بذلوا نفيس أوقاتهم بيانا لمعاني القرآن الكريم بحسب حاجات الناس واختلافاتها ووفق ما يقتضيه الواقع، فاتخذوا من الآيات القرآنية وسيلة لعلاج ما يعانيه أهل زمانهم من علل ومشاكل، ليجمعوا بذلك بين التفسير والتنزيل حرصا على تحقيق أحد أهم المقاصد من تفسير القرآن الكريم وهي إصلاح الواقع على هدي القرآن الكريم ومنهجه.

الكلمات المفتاحية: تنزيل الآيات ، التفاسير الجزائرية، القرن الرابع عشر.

The revelation of verses on reality according to the interpretation scholars in Algeria during the fourteenth century AH

Abstract

The efforts of contemporary Algerian scholars in the science of interpretation have appeared, as they spent their precious time to clarify the meanings of the Holy Quran according to people's needs and their differences, and according to what reality requires. They took the verses of the Holy Quran as a means to treat the ills and problems that the people of their time were suffering from, as they combined in this way between interpretation and revelation in order to realize one of the most important aims of the interpretation of the Holy Quran, that is reforming reality in a way that is commensurate with the Holy Qur'an and its approach. Therefore, this study aims to clarify the extent to which the Algerian interpretations in the fourteenth century took care of the issue of descending the verses to reality.

Keywords: *descending the verses, Algerian interpretations, the fourteenth century.*

مقدمة:

شهد القرن الرابع عشر الهجري ظهور الكثير من التفاسير، اشترك أصحابها مع من سبقهم من المفسرين في المقصد والغاية وهو بيان معاني القرآن الكريم وما يستفاد منها، رغم تمايز اتجاهاتها واختلاف توجهات أصحابها ومواطنهم، حيث اشتهر عدد من بلاد المسلمين بأعلام أفذاذ رفعوا راية التفسير في العصر الحديث؛ ومن تلك البلاد التي لمعت جهودها في التفسير الجزائر المحروسة؛ فقد حمل لواء التفسير فيها علماء أجلاء سخروا حياتهم خدمة لكتاب الله ﷻ، وبذلوا نفيس أوقاتهم بيانا لمعاني القرآن الكريم بحسب حاجات الناس واختلافاتها، وفق ما يقتضيه الواقع، فاتخذوا من آيات القرآن الكريم وسيلة لعلاج ما يعانيه أهل زمانهم من علل ومشاكل، فجمعوا بذلك بين التفسير والتنزيل حرصا على تحقيق أحد أهم المقاصد من تفسير القرآن الكريم وهي إصلاح الواقع على هدي القرآن الكريم ومنهجه، وسعيا إلى إيجاد الحلول واستخراجها من منبعها الصافي.

وقد جاءت هذه الورقة البحثية الموسومة بـــ **" تنزيل الآيات على الواقع عند أعلام التفسير في الجزائر خلال القرن الرابع عشر الهجري"** لتعطي لمحة عن حركة التفسير في الجزائر خلال القرن الرابع عشر الهجري، وعن مسألة تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين، مع إبراز جهود أصحاب عدد من التفاسير الجزائرية المعاصرة في تنزيل الآيات تلبية لحاجات الأمة وخدمة لقضاياها المستجدة.

مشكلة البحث: يطرح هذا البحث إشكالا رئيسيا يتمحور حول مدى عناية التفاسير الجزائرية في القرن الرابع عشر بمسألة تنزيل الآيات على الواقع.

ويندرج تحته جملة من التساؤلات الفرعية، ولعل من أهمها: ما هي أهم التفاسير الجزائرية المعاصرة خلال القرن الرابع عشر الهجري؟ وكيف حرص أصحابها على ربط الآيات بواقعهم المعاصر؟

أهداف البحث:

- المساهمة في التأصيل لقضية التنزيل على الواقع.
- إظهار مدى الترابط الوثيق بين التفاسير الجزائرية المعاصرة وبين متطلبات زمانها ومكانها.
- إبراز جهود عبد الحميد بن باديس ومحمد الخضر حسين في تنزيل الآيات على واقع الجزائر المعاصر.
- الوقوف على أهم الجوانب التي اشترك فيها المفسرين في ربطهم الآيات بواقعهم.

المطلب الأول: مدخل تمهيدي.

يحسن بالباحث قبل أن يطرق باب الدراسة التطبيقية في بحثه أن يقدم لها بمقدمات نظرية تكون بمثابة الأطر التي تحدد مجال البحث وتزيل ما قد يظهر في عنوانه من لبس؛ وهذا ما قصدته في هذا المدخل التمهيدي الذي أردت من خلاله الحديث عن مسألة تنزيل الآيات على الواقع في فرع أول، وفي الفرع الثاني حاولت إعطاء لمحة موجزة عن حركة التفسير في الجزائر خلال القرن الرابع عشر الهجري.

الفرع الأول: مسألة تنزيل الآيات على الواقع.

اجتهد عدد من المفسرين في ربط آيات القرآن الكريم بواقعهم وعصرهم، رغبة منهم في توثيق الصلة بين أهل زمانهم ومستجدات عصرهم ، وبين ما جاء به القرآن الكريم بعد أن اتسعت الهوّة بينهما خاصة في العصر الحديث ، حيث اشتدت الحاجة إلى ربط الناس بكتاب ربهم وبيان أن آيات القرآن الكريم صالحة لكل زمان ومكان.

أولا: معنى تنزيل الآيات على الواقع.

تعد مسألة "تنزيل الآيات على الواقع" من بين القضايا التي اشتهرت في العصر الحديث تنظيرا وتطبيقا، بينما اهتم بها السلف من العلماء والمفسرين لكن لم ينظروا لها؛ إذ التعريف بها جاء متأخرا ولم يتطرق إليه إلا عدد من المعاصرين، ومن تلك التعريفات ما يأتي:

أ. تعريف عبد العزيز الضامر قال: "هو مقابلة الأحداث المعاصرة للمفسر بما يشابهها في كتاب الله تعالى، سواءً كانت المقابلة تامة أو جزئية أو مخالفة لما عليه الآية"[1].

وهذا التعريف من أهم التعريفات التي حاول فيها صاحبها تحديد معالم الموضوع وإبراز حدوده، وقد اعتمده جملة من الباحثين بعده[2].

ب. تعريف هشام شوقي قال: "هو محاولة المفسر ربط معنى الآية القرآنية بما يقابلها من الأحداث الواقعة في المجتمع زمن تفسيره لكتاب الله، وذلك للسير وفق التوجيهات الربانية في القضية محل الدراسة"[3].

وهذين التعريفين أهم ما قيل في بيان المراد من "تنزيل الآيات على الواقع".

---

[1] تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين، ص25.

[2] منهم يحي بن محمد زمزمي في بحثه. ينظر: تنزيل الآيات على الواقع عند ابن القيم، ص25.

[3] تنزيل الآيات على الواقع عند الإمام ابن باديس من خلال تفسيره "مجالس التذكير"، ص53.

ويمكن القول أن مسألة "تنزيل الآيات على الواقع" تطلق ويراد منها: **"اجتهاد المفسر في الكشف عن الرابط بين الآية القرآنية وما يقابلها من الأحداث الواقعة في زمنه من خلال تفسيره للآية، بغية إيجاد العلاج القرآني لها".**

فالمفسر يُعمل فكره ورأيه في إيجاد العلاقة بين آيات القرآن الكريم وواقعه المعاصر، وذلك من خلال تقريب معاني الآيات وربطها بواقع الناس، في محاولة للسير وفق منهج قرآني في علاج قضايا مجتمعه.

وإعماله للرأي إنما يكون وفق ضوابط لأن "كل رأي في الدين لا يستند إلى ما كان النبي ﷺ يتلوه من الآيات، ويعلمه من الكتاب والسنة، أو من الأصول المستمدة منهما على وجه معقول، فهو رد على صاحبه"[1].

ثانيا: أهمية تنزيل الآيات على الواقع في تفسير القرآن الكريم.

تكتسب مسألة "تنزيل الآية على الواقع" أهمية بالغة سواء بالنسبة للمفسر، أو بالنسبة لحاجة الناس إليها لصلاح أحوالهم في الدنيا والفوز بالرضوان في الآخرة.

1. أهمية تنزيل الآيات على الواقع بالنسبة للمفسر، وتكمن في النقاط الآتية[2]:

- توثيق أبرز الأحداث التاريخية في عصره.

- معرفة موقفه من الحدث النازل في زمانه، وكيف تعامل معه.

- التعرف على شيء من سيرته الذاتية.

2. أهمية تنزيل الآيات على الواقع في حياة الناس وواقعهم، ويمكن تلخيصها فيما يلي[3]:

- زيادة توضيح معاني الآيات وتقريبها للأفهام والعقول، فانطباق معنى الآية على واقع يراه الناس عيانا يزيد في إدراكهم لها وفهم معناها ورسوخه في أذهانهم.

- ربط المسلم المعاصر بكتاب الله تعالى، وإزالة الفجوة بينه وبين القرآن، فإذا شاهد المسلم تنزيل الآيات عند المفسرين على واقعهم، استفاد منها وكانت خير حافز ومعين على تنزيل الآيات على واقعه.

---

[1] أسرار التنزيل، محمد الخضر، ص239. وينظر ضوابط تنزيل الآيات على الواقع في رسالة: تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين، عبد العزيز الضامر، ص89 وما بعدها.

[2] تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين، عبد العزيز الضامر، ص79- 82.

[3] تنزيل الآيات على الواقع عند ابن القيم، يحيى بن محمد زمزمي، ص25.

الفرع الثاني: حركة التفسير في الجزائر خلال القرن الرابع عشر الهجري.

نبغ عدد من العلماء الجزائريين في التفسير منذ عهد مبكر، حملوا لواء بيان معاني آيات الذكر الحكيم واجتهدوا في رفع رايته عبر مر العصور؛ فكان لهم اليد الطولى فيه أمثال: الإمام أبو العباس أحمد الباغائي (354هـ/ 461م)[1]، وكذا الإمام أبو جعفر أحمد بن ناصر الداودي (402هـ)[2].

استمرت جهود المفسرين الجزائريين عبر مر القرون، فأنجبت كل حقبة علماء أجلاء صرفوا جهودهم في الكشف عن معاني القرآن الكريم وبذلوا في ذلك نفيس أوقاتهم؛ إلى أن وصلت الحقبة الاستعمارية حيث أنيط بالعلماء مهمة أخرى وهي دعم المقاومة المسلحة والدفاع عن بلادهم ضد المستعمر الغاشم الذي أراد سلب البلاد وطمس هوية العباد.

وهذا لم يعفيهم من مواصلة حركة التفسير بل حمل مشعل الإصلاح والتعليم عدد منهم، اشتغلوا بتعليم الشعب الجزائري وربطه بدينه ولغته ووطنه، وقد كان الاهتمام بالقرآن الكريم والتفسير أولى أولوياتهم التي تسلحوا بها في دعوتهم الإصلاحية، إذ اتخذوه مشكاة يُستضاء بنورها ويُهتدى بمعالمها ، من أجل النهوض بأمة طُمست آثارها ونُسّيت حضارتها وتداعت عليها الأمم كما تداعت الأكلة على قصعتها، فحرصوا على تعليم الناس الدين القويم من منبعه الصافي.

ومن هؤلاء عالمين جليلين أحدهما ولد ونشأ وعاش بالجزائر وهو الشيخ عبد الحميد بن باديس - رحمه الله-[3]،برع في التفسير وفي غيره من العلوم وخلّف تراثا تزخر به المكتبة القرآنية الجزائرية عبر مرّ العصور.

والثاني ولد بالجزائر ثم هاجر مع أسرته نحو تونس رغبة في الابتعاد عن الاستعمار الغاشم، ولكنها لم تسلم أيضا من بطش ه مما اضطر الشيخ للخروج إلى الشام والتي سقطت هي الأخرى في شباكه، ليستقر بعدها في مصر التي عرفت انتشار دعاة الإلحاد وأتباع الثقافة الاستعمارية كغيرها من البلاد العربية وهو الشيخ محمد الخضر حسين[4].

---

[1] قال عنه ياقوت الحموي: "كان لا نظير له في علوم القرآن والفقه على مذهب مالك". معجم البلدان، ج1، ص325.

[2] قال عنه القاضي عياض: "كان فقيها فاضلا متفننا مؤلفا مجيدا له حظ من اللسان والحديث والنظر". ترتيب المدارك وتقريب المسالك، ج1، ص497.

[3] هو: الشيخ عبد الحميد بن باديس القسنطيني، ولد سنة 1307هـ/ 1889م، والده السيد محمد المصطفى بن مكي، من مؤلفاته التي جمعت له: العقائد الإسلامية، رجال السلف ونساؤه. انتقل إلى الرفيق الأعلى يوم الثلاثاء 8 ربيع الأول 1359هـ/ 16 أفريل 1940م. ينظر: آثار ابن باديس، جمع: عمار طالبي، ص72- 73/ الإمام المجدد ابن باديس والتصوف، أحمد محمود الجزار، ص16.

[4] هو: محمد الخضر بن الحسين بن علي بن عمر تونسي المولد والمنبت جزائري الأصل، ولد بمدينة نفطة في 26 رجب سنة 1293هـ الموافق لـ21 جويلية 1873م، والده: الشيخ الحسين بن علي بن عمر "الطولقي"، من مؤلفاته: أسرار التنزيل، بلاغة القرآن، رسائل الإصلاح...، انتقل للرفيق الأعلى مساء يوم الأحد 13 رجب 1377هـ الموافق لـ 22 فيفري 1958م. ينظر: الأعلام، الزركلي، (113/6)/ ترجمة

وما سبق ذكره أعطانا ومضات عن الحالة السياسية في الفترة التي عاش فيها كلا الشيخين، والتي أثرت بدورها على الحالة الاجتماعية التي شهدت تقهقرا كبيرا؛ حيث استفحل الفقر والجهل في المجتمع، وفي مقابل ذلك ظهرت فرق عقدية ضالة مناقضة لأصول الشريعة مثل: العلمانية والقاديانية والبهائية.

وهذا الواقع الأليم أثر فيهما فلم يقابلاه بالاستسلام، بل إن غيرتهم على عقيدته م ودينهم، بعث فيهما روح الإصلاح والتغيير والتجديد؛ إصلاح الواقع والدعوة إلى العودة إلى تعاليم الإسلام والابتعاد عن التبعية الغربية.

فأقبلا على القرآن الكريم يقينا منهما بصلاحيته وإصلاحه لكل زمان ومكان، من أجل الكشف عن ما أفرزه العصر من علل ومشكلات، ليصفا دواء الداء في ثنايا تفسيرهم لآيات القرآن الكريم.

قال عبد الحميد بن باديس: "أن نقرأ القرآن ونتفهمه، حتى تكون آياته على طرف ألسنتنا، ومعانيه نصب أعيننا، لنطبق آياته على أحوالنا، وننزلها عليها كما كانت تنزل على الأحوال والوقائع، فإذا حدث مرض قلبي أو اجتماعي طلبنا دواءه في القرآن وطبقناه عليه، وإذا عرضت شبهة أو ورد اعتراض، طلبنا فيه الرد والإبطال. وإذا نزلت نازلة طلبنا فيه حكمها، وهكذا نذهب في تطبيقه وتنزيله على الشؤون والأحوال إلى أقصى حد يمكننا"[1].

وقال محمد الخضر حسين: "نود من صميم قلوبنا أن تكون نهضتنا المدنية راسخة البناء رائعة الطلاء محمودة العاقبة، ولا يرسخ بناؤها ويروع عطاؤها وتحمد عاقبتها إلا أن تكون موصولة بنظم الدين مصبوغة بآدابه"[2].

=الإمام محمد الخضر حسين، جمع: علي الرضا الحسيني، (11/1 وما بعدها)/ تاريخ الجزائر الثقافي، أبو القاسم، (217/3).

[1] مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ص181.

[2] رسائل الإصلاح، محمد الخضر حسين، ص116.

المطلب الثاني: تنزيل الآيات على الواقع في تفسير(مجالس التذكير) و(أسرار التنزيل).

اخترت في هذا المطلب نموذجين رائدين في مسألة تنزيل الآيات الواقع ؛ إذ يعد تفسير (مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير) لعبد الحميد بن باديس و تفسير (أسرار التنزيل) لمحمد الخضر حسين من أغنى التفا سير المعاصرة بالمواضع التي ظهر فيها ربط الآيات بالواقع. وذلك من باب إجراء مقارنة بينهما ثم الخروج بأهم المسائل التي اشتركا فيها ؛ وقد ركّزت على الجانب العقدي والجانب الاجتماعي لأهميتهما من جهة، ولما وقفت عليه من نماذج مشتركة عند كلا المفسرين من جهة ثانية.

الفرع الأول: الجانب العقدي.

أغارت جحافل الغزو الفكري على بلاد الجزائر وغيرها من البلاد المستعمرة، وتسللت إلى عقول وقلوب أبنائها، وبدأت تطفو مظاهر الشرك، وقد أرّق هذا بال دعاة الإصلاح والتجديد أمثال عبد الحميد بن باديس ومحمد الخضر حسين، فانكبوا على القرآن الكريم مستعينين بالفهم السديد للآيات ثم الكشف عن وجه الصلة بينها وبين واقعهم، حرصا منهم على بعث أصول التوحيد، وتصحيح المفاهيم الخاطئة في أمور العقيدة، مثل اللجوء إلى غير الله بالدعاء وتقديس الأضرحة والاستعانة بالصالحين من موتى المسلمين وغيرها من المظاهر التي عكرت صفو العقيدة السليمة.

. التحذير من الشرك ومظاهره المعاصرة:

يقول عبد الحميد بن باديس في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ﴾ الإسراء: ٥٦

"إذا علمت هذه الأحكام، فانظر إلى حالتنا معشر المسلمين الجزائريين وغير الجزائريين، تجد السواد الأعظم من عامتنا غارقاً في هذا الضلال: فتراهم يدعون من يعتقدون فيهم الصلاح من الأحياء والأموات، يسألونهم حوائجهم من دفع الضر، وجلب النفع، وتيسير الرزق، وإعطاء النسل، وإنزال الغيث، وغير ذلك مما يسألون. ويذهبون إلى الأضرحة التي شيدت عليها القباب، أو ظلمت بها المساجد فيدعون من فيها، ويدقون قبورهم، وينذرون لهم، ويستثيرون حميتهم، بأنهم خدامهم وأتباعهم، فكيف يتركونهم؟؟ وقد يهددونهم بقطع الزيارة، وحبس النذور.

وتراهم هنالك في ذل وخشوع وتوجه، قد لا يكون في صلاة من يصلي منهم!!

فأعمالهم هذه من دعائهم وتوجههم كلها عبادة لأولئك المدعوين، وإن لم يعتقدوها عبادة؛ إذ العبرة باعتبار الشرع، لا باعتبارهم. فياحسرتنا على أنفسنا كيف لبسنا الدين لباسا مقلوبا، حتى أصبحنا في هذه الحالة السيئة من الضلال"[1].

---

[1] مجالس التذكير، ص119.

وقد دعا بعد ذلك إلى نشر هذه الحقائق بين إخوانه الجزائريين، قائلا: "عسى أن يتنبه الغافل ويتعلم الجاهل، ويقلع الضالون عن ضلالهم، ولو بطريق التدريج؛ وبذلك يكون قراؤنا قد أدوا أمانة العلم، وقاموا بفريضة النصح، وخدموا الإسلام والمسلمين"[1].

وقد أكّد على مضمون هذا النقل محمد الخضر إذ أوكل مهمة التنبيه على هذه المظاهر الشركية إلى دعاة الإصلاح بل جعل من واجبهم إعادة الناس إلى التوحيد الخالص ، وذلك لما رأى ما يصدر من بعض الزائرين لقبور الصالحين من تصرفات تتنافى مع الأدب مع الله، يقول في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾البقرة: ٢٢ "ومن الواجب على دعاة الإصلاح: أن يراقبوا أحوال من يزورون قبور الصالحين، حتى إذا أحسوا من زائر المبالغة في تعظيم صاحب القبر؛ كالانحناء أمامه في هيئة الراكع أو الساجد، نبهوه برفق، وأنقذوه من الوقوع في اعتقاد أن الولي يملك لنفسه أو لغيره نفعا أو ضرا، وأعادوه إلى ما يوافق التوحيد الخالص؛ من أن النفع والضر من طريق غيبي إنما هو بيد الله الذي بيده ملكوت كل شيء"[2].

يتضح مما سبق الحرص البالغ الذي أولاه كلا المفسرين للتنبيه إلى القضايا الشركية التي ظهرت في العصر الحديث وبدأت تنتشر وتعكر صفو العقيدة الصافية في بلاد المسلمين، تنبيها للغافل وتعليما للجاهل.

. الرد على العقائد الشركية لبعض الفرق المعاصرة:

يقول محمد الخضر حسين ردا على منكري المعجزات أثناء تفسيره لقوله تعالى: ﴿ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾البقرة: ٥٠

"العقيدة السليمة تقضي بأن تفهم واقعة انفلاق البحر لموسى وقومه على أنها معجزة كونية، لا أنها حادثة طبيعية منشؤها المد والجزر؛ كما يزعم بعض من لا يبالي أن يظهر برأي يدفعه صريح القرآن"[3].

وفي هذا رد على دعاة الإلحاد الساعين لهدم أسس التوحيد ومقوماته، الذين خالفوا الشريعة وتأولوا الآيات على غير وجهها الصحيح.

ويقول عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾البقرة: 22: "الأنداد: جمع ند، والند: المماثل المكافئ، وفسر في الآية بمعنى: الشريك، فكل من عظم مخلوقا التعظيم الذي لا يليق إلا بالله

---

[1] مجالس التذكير، ص119- 120.

[2] أسرار التنزيل، ص366.

[3] أسرار التنزيل، ص98.

تعالى، فقد اتخذ ذلك المخلوق ندا لله، وتتناول الآية مشركي العرب لعبادتهم الأصنام...والمجوس لعبادتهم النار...

وممن يجعلون لله أندادا: أولئك الفرق الضالة الذين يعتقدون إلهية زعمائهم؛ كطائفة البهائية الذين يعتقدون إلهية زعيم مذهبهم""[1].

فقد أدخل المفسر هنا من يعتقدون إلهية زعمائهم من المعاصرين في معنى الآية.

وصفوة القول فيما سبق ذكره في الجانب العقدي أن إصلاح المجتمع وتطهيره من البدع كان من أولى أولويات كلا المفسرين ، وذلك ليقينهم ب أهمية غرس العقيدة الإسلامية في نفو س المسلمين المعاصرين، وأثرها الفعال في إصلاح أحوالهم، فكان تفسير كلام الله سبيلا لتقويم العقائد وتهذيب السلوك.

يقول محمد الخضر حسين : "من كفر بالله وعصاه فقد أفسد في الأرض، وإنما تصلح الأرض بالتوحيد والطاعة"[2].

---

[1] أسرار التنزيل، ص366.

[2] أسرار التنزيل، ص29.

الفرع الثاني: الجانب الاجتماعي.

المفسر ابن بيئته يتعايش مع واقعه وعصره، ويتفاعل مع قضايا مجتمعه، إذ صلاح هذا الأخير هو صلاح للأمة الإسلامية برمتها، لذا كان الاهتمام بإصلاح الجانب الاجتماعي من أولويات أصحاب الحركات الإصلاحية من المفسرين وغيرهم، وهذا نستشعره بجلاء في تفسير (مجالس التذكير) وتفسير (أسرار التنزيل).

. التحذير من الآفات الاجتماعية التي انتشرت في العصر الحديث:

تفشت في الحقبة الاستعمارية الكثير من الآفات الاجتماعية، استغل عبد الحميد بن باديس ومحمد الخضر حسين تفسيرهما لمعاني آيات القرآن الكريم للنهي عنها وذمها، وحرصًا على وصف العلاج القرآني لها.

❋تحذير عبد الحميد بن باديس من آفة الإسراف:

تحدث المفسر عن قضية الإسراف أثناء تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴾الفرقان: ٦٧ قائلا: "حالة وطننا في الأعم الأغلب في الولائم والمآتم لا تخلو من السرف فيها، الذي يؤدي إلى التقتير من بعدها فيكون الإثم قد أصاب صاحبها بنوعيه، وأحاط به من ناحيتيه، والشر يجر إلى الشر، والإثم يهدي إلى مثله، وعلى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين علق كثير ممن سمعناهم يشكون هذه الحالة- آمالهم في معالجتها، خصوصاً في المآتم. حقق الله الأمال.

وثم نوع آخر موجود في غالب القطر، وبكثر في بعض الجبال. وهو أن بعض المأمورين من شيوخ الطوائف، يأتون بثلة من أتباعهم، فينزلون على المنتمين إليهم من ضعفاء الناس، فيذبح لهم العناق إن كانت، ويستدين لشرائها إن لم تكن، ويفرغ المزاود، ويكنس لهم ما في البيت، ويصبح معدماً فقيراً مديناً، ويصبح من يومه صبيته يتضاغون، ويمسي أهل ذلك البيت المسكين يطحنهم البؤس، ويميتهم الشقاء ميتات متعددة في اليوم.

وشر ما في هذا الشر أنه يرتكب باسم الدين، ويحسبه الجهال أنه قربة لرب العالمين: فأما إذا جاء وقت شد الرحال إلى الأحياء والأموات، وتقديم النذور والزيارات، فحدث هنالك عن أنواع السرف والكلفات، والتضييع للحقوق والواجبات"[1].

وهذا توجيه سديد وتنزيل دقيق من شيخ المفسرين المعاصرين على واقعه، إذ ذكر مواطن الإسراف المختلفة والتي ألفها الناس فأصبحوا لا يستشعرون مخاطر ما يقومون به على حياتهم الدنيوية

---

[1] مجالس التذكير، ص218.

وما يلحقهم من إثم وعقاب في الآخرة؛ وهذا في زمنه ولو أدرك زمننا فما كان عساه أن يقول فيه وقد أصبحت البهرجة والتفنن في الإسراف ملازمة للولائم والأعراس والله المستعان.

*تحذير محمد الخضر حسين من جريمة الرشوة:

اعتنى الإمام في ثنايا تفسيره بمعالجة الكثير الآفات الاجتماعية، والتي منها جريمة الرشوة حيث بين حرمتها وحذر الناس من تعاطيها، لما فيها من الفساد العظيم والعواقب الوخيمة.

يقول في تفسيره لقوله ﷻ: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾البقرة: ٧٩.

"الكسب: اجتلاب النفع أو الضرر. وهذا وعيد على أخذ الأموال من الأتباع المقلدين لهم بغير حق. والآية تدل على تحريم أخذ المال بالباطل؛ كالرشوة، وإن أخذها برضا المعطي"[1].

وفي تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾البقرة: ٨٨ قال: "ومن المحتمل القريب أن يفهم من نظم الآية: تحريم إعطاء مال للحاكم على وجه الرشوة. والمعنى: ولا تدلوا بأموالكم -أي: بعضها- إلى الحكام؛ لتتوصلوا بأحكامكم الجائرة إلى أكل فريق من أموال الناس بغير حق.

ولا غرابة في أن يعنى القرآن الكريم في سياسته الرشيدة بالتحذير من جريمة الرشوة؛ فإنها المعول الذي يهدم صرح العدل من أساسه، وبها تفقد مجالس القضاء حرمتها، ولا يبقى للجالسين على كراسيها كرامة.

وللرشوة شبَه بالسرقة؛ لأنها تؤخذ من يد مالكها خفية. وشبه بالغصب؛ لأنها تؤخذ منه تحت سلطان القضاء"[2].

اجتهد المفسر في فهم الآية فنزّل معناها على مظاهر استفحلت في عصره، وتتمثل في إعطاء المال للحاكم من أجل أكل أموال الناس بغير حق؛ هذه الأخيرة جعلها نوع من أنواع الرشوة التي حرمها القرآن الكريم، كي ينتبه الناس إلى تصرفاتهم، ولا يستهينوا بما يصدر منهم من أفعال قد تبدوا بسيطة لكنها في الشرع محرمة لما فيها من ضرر.

---

[1] المصدر نفسه، ص144.

[2] المصدر نفسه، ص349- 350.

. ذم الافتتان بالغرب والعيش تحت سلطة العدو:

اهتم ابن باديس في تفسيره بقضية افتتان المسلمين بالمجتمع الغربي وتأثرهم بهم يقول في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا ﴾ الفرقان: ٢٠

" كما يفتن الفرد بالفرد، كذلك تفتن الأمة بالأمة: من ذلك أننا- معشر الأمة الإسلامية- قد فتنا بغيرنا من أمم الغرب، وفتنوا هم أيضاً بنا: فنحن ندين بالإسلام وهو دين السعادة الدنيوية والأخروية ولكن حيثما كنا- إلاّ قليلاً- لسنا سعداء لا في مظاهر تديننا، ولا في أحوال دنيانا.

ففي الأولى: نأتي بما يبرأ منه الإسلام، ونصرح بأنه من صميمه.

وفي الثانية: ترانا في حالة من الجهل والفقر والذل والاستعباد يرثي لها الجماد.

قلما يرانا الغربيون على هذه الحالة ينفرون من الإسلام، ويسخرون منه، إلاّ من نظر منهم بعين العلم والإنصاف، فإنه يعرف أن ما نحن عليه هو ضد الإسلام. فكنا فتنة عظيمة عليهم، وحجاباً كثيفاً لهم عن الإسلام. فكنا- ويا للأسف- فتنة للقوم الظالمين.

وهم من ناحيتهم نراهم في عز وسيادة، وتقدم علمي وعمراني، فننظر إلى تلك الناحية منهم فنندفع في تقليدهم في كل شيء، حتى معائبهم ومفاسدهم، ونزدري كل شيء عندنا حتى أعز عزيز. إلاّ من نظر بعين العلم فعرف أن كل ما عندهم من خير، هو عندنا في ديننا وتاريخنا، وأن ذلك هو الذي تقدموا وسادوا به. وأن ما عندهم من شر هو شر على حقيقته، وأن ضرره فيهم هو ضرره، وأنه لا يجوز أن يتابعوا عليه، فكانوا فتنة لنا حتى ينظر من ينظر بعين الحق للحقائق ممن تبهره الظواهر فتسلبه إدراكه فيغدو لا يفرق بين اللب والقشور"[1].

وهنا ألمح المفسّر إلى قضايا غاية في الأهمية، يدرك المتبصر لما قاله الفهم الدقيق الذي رزقه الشيخ رحمه الله، وحسن التنزيل والتعايش مع الواقع الذي آل إليه المسلمون، والتوجيه الدقيق لمسألة الافتتان بالغرب، فوّضح كيف افتتنا بهم، وكيف فتنوا بنا.

وهذا الواقع الأليم الذي يعيشه المسلمون في العصر الحديث، من أهم ما ركز عليه المصلحون في دعوتهم، حيث اجتهدوا في بيان الأسباب وطرق العلاج من مقتضى النصح للأمة، والإمام محمد الخضر واحد من هؤلاء الدعاة المصلحين الذين سخروا حياتهم في سبيل النهوض بالأمة وإرشاد المسلمين إلى ما فيه فلاحهم من خلال تفسيره لآيات الذكر الحكيم ، يقول في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٢٦ ﴾الأنفال: ٢٦

---

[1] مجالس التذكير، ص168- 169.

"نرى أولئك الرجال يؤمنون بالله إيمانا صادقا، ويصبرون للبلاء يصيبهم في سبيل الحق...ويأبون أن يلقوا الضالين أو الفاسقين بالمودة...كانوا ينظرون إلى عدوهم بعين الحذر، ويأخذون بأسباب النجاة ما استطاعوا، إلى نحو هذا من الخصال التي هداهم إليها الكتاب الحكيم.

فنقتبس من أن سنة الله في القوم الذين يتحفظون بهذه الخصال أن يجعلهم في أمن ومنعة وعزة، وعيشة راضية، ولا عجب أن نرى المسلمين اليوم كثرة، وهم فيما نرى ونسمع من استضعاف، فقد أضاعوا جانبا عظيما من الخصال التي تقوم عليها سنة الله في تخليص القوم من عدو يضع يده فوق أيديهم"[1].

فقد وضع المفسر هنا يده على الداء، ووصف الدواء من القرآن الكريم وهو التمسك بالخصال التي تقوم عليها سنة الله في تخليص القوم من العدو.

[1] أسرار التنزيل، ص403- 404.

خاتمة:

بعد هذه الجولة السريعة في رحاب عناية المفسرين الجزائريين المعاصرين بمسألة تنزيل الآيات على الواقع، نصل إلى تسجيل أهم النتائج التي توصلت إليها وألخصها في نقاط أهمها:

✓ أن حركة التفسير في الجزائر شهدت ظهور الكثير من التفاسير عبر مر العصور، وقد اشتهر في العصر الحديث عدد منها، ولعل من أهمها تفسير عبد الحميد بن باديس وتفسير محمد الخضر حسين.

✓ أن عبد الحميد بن باديس ومحمد الخضر حسين عاشا في نفس الفترة، فتشابهت الظروف التي مرا بها إذ كلاهما ضاق مرارةالاستعمار وعانا من ويلاته، وإن اختلف مكان الإقامة.

✓ يعد ابن باديس ومحمد الخضر حسين من رواد حركة الإصلاح في العصر الحديث الذي حرصوا على ربط الآيات بواقعهم، انكبوا على القرآن الكريم وبحثوا في الآيات التي لها ارتباط بواقعهم ليكشفوا وجه الصلة بينهما، ويصفوا الدواء والعلاج.

✓ أن تنزيل الآيات على الواقع كان من أبرز المسائل التي اشتهر بها تفسري مجالس التذكير وأسرار التنزيل، وذلك لأهميتها في ربط المسلمين بكتاب الله عز وجل، كما أنها المنفذ الوحيد لإخراج المجتمع آنذاك من ظلمات الجهل والظلال إلى نور العلم واليقين، وهذا جزء من نصرة الأمة.

✓ يعد الجانب العقدي والجانب الاجتماعي من أبرز الجوانب التي اهتم بها كلا المفسرين، وقد ظهر ذلك بوضوح أثناء تفسيرهم للآيات وربطها بالواقع.

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.
- الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، خير الدين الزركلي، ط15، 2002م، دار العلم للملايين، بيروت: لبنان.
- آثار ابن باديس، جمع: عمار طالبي، ط1، 1388هـ/ 1968م، دار ومكتبة الشركة الجزائرية.
- الإمام المجدد ابن باديس والتصوف، أحمد محمود الجزار، ط1، 1999م، منشاة المعارف، الإسكندرية: مصر.
- تاريخ الجزائر الثقافي، سعد أبو القاسم، ط1، 1998م، دار الغرب الإسلامي، بيروت: لبنان.
- ترتيب المدارك وتقريب المسالك، القاضي عياض، ت: محمد بن تاويت الطنجي، ط3، 1403هـ/ 1983م، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية. نلت من شاملة
- تنزيل الآيات على الواقع عند ابن القيم، يحيى بن محمد الزمزمي، مجلة البحوث والدراسات الإسلامية، العدد الرابع، السنة الثانية.
- تنزيل الآيات على الواقع عند الإمام ابن باديس من خلال تفسيره "مجالس التذكير"، هشام شوقي،
- تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين -دراسة وتطبيق-، عبد العزيز الضامر، ط 1، 1428هـ/ 2007م، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم.
- معجم البلدان، ياقوت الحموي، د.ط، د.س، دار الفكر، بيروت: لبنان.
- موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين، جمع وضبط: علي الرضا الحسيني، ط 1، 1431هـ/ 2010م، دار النوادر، دمشق: سوريا.

. أسرار التنزيل -تفسير آيات قرآنية كريمة-.

. ترجمة الإمام محمد الخضر حسين.

. رسائل الإصلاح.